العروبة والمذاهب المعاصرة

بقلم علي بدور

تحدوني عدة عوامل لان اخوض هذا الغمار المقدس ، وبخاصة بعد ان سبقني اليه ، على التتابع الاساتذة : عبدالله الدائم ، وحمادي ، وشرارة . وماذا يفعل الجنود اذا وجدوا ضباط اركان الحرب فى طليعة من يحملون البنادق ؟ الا انني احب ان اوضح اني لـن احارب على طريقتهم . كل ما فى الامر انني راض بدوري الذي ساقوم به ، فى معركة العروبة المقدسة . وما دامت القضية لا تزال مشتعلة الاوار ، ووقودها اقلام الكتاب والمفكرين ، فان الذي يصقل هذا السنا ليزيده مقدرة على الضياء، انما هو فتح الصدور والقلوب لكل رأي ... ولكل فكرة ، وسماع وجهات النظر بروح منصفة ، لا تفرق في الاعتبار بين كبير او صغير الاضمن حدود شفافة للحقيقة ، تلك التي نغذيها بما تملك ايماننا ، وتقوى عليه افئدتنا، من صادق الشعور ونبيل المقاصد السامية .

تبقى انبل الافكار ، مرسومة على الورق ، اذا لم تعتبر بواقع المجتمع وظروف الحياة التي تحياها الشعوب ، وبخاصة اذا كانت هذه الافكار شديدة الالتصاق بمستقبل امة ما ، ولعل من البداهة القول ان ما كان يصح التفكير به والدعوة اليه فى القرن التاسع عشر ، لم يعد يؤهل الناطق بـه للاحترام فى هذا القرن العشرين ، والعصور حافلة بالامثلة على ذلك ، واذا كان فلاسفة اوروبا قد امضوا زهاء قرنين فى مناقشة حق الملك ومصدره ، اهو الله ام الشعب ، فاننا اليوم لا نسمح بانفاق خمس دقائق لتقرير ما هو بدهي ، بالاضافة الى ما كانت تجده فكرة الحروب الدينية ايام الحملات الصليبية من تشجيع الكنيسة ، الامر الذي غدا ضربا من المحال حتى باتت الكنيسة اليوم ، داعية الى السلام والمحبة ، بين البشر في مشارق الارض ومغاربها .

وقبل ان نمضي في الطريق المؤدية الى ايجاد مذهب عربي مستقل ، متميز عن المذهبين الغربيين ـ اصلا ونشاة ـ ينبغي ان نحدد وضعنا على خريطة العالم ، فنقف مليا على التيارات التي تشمل فيما تشمل كل الشعوب والامم والدول ، بله القارات التي تعيش اليوم حاضرها ، باذلين جهدنا ، لوضع النقاط على الحروف ، بما يخص شمول هذه الحضارة الحديثة ، للانسان الحديث ، ومدى تاثيراتها على استعداده الفطري والمكتسب للمساهمة في احياء تراث الحضارة الانسانية ، ضمن المجموعة العالمية ، مبينين مدى ما يمكن ان نفعله دون الاستعانة بغيرنا ، واضعين نصب اعيننا اهدافنا في التحرر والوحدة والاستقلال .

نعلم جميعا ، ان الحضارة الحديثة ، اضحت طابع العصر المميز . ولم تعد الامم تعيش في عزلة فتقفل على نفسها باب الاتصال ببقية العالم ، لتغدو وحدة لها صفاتها وعناصرها الخاصة بها ، والتي لا تشبه بقية المجموعات الاخرى في قليل او كثير . فجاءت الحضارة الحديثة تفك قيود هذه العزلة على اوسع نطاق عرفه التاريخ ، واصبح نور الكهرباء ، هو ذات النور الذي يضيء شوارع نيويورك .. وساحات موسكو ، واي بيت عربي في مراكش او مصر او العراق ، وبات القطار الحديدي يصل موسكو ببكين ، ويقارب ما بين نافذتي امريكا على الاطلسي والهادىء ، حتى الذرة التي بعثرت هيروشيما .. توشك اليوم ان تبعثر مدن الحلفاء الذين انتصروا على المحور في الحرب العالمية الثانية ، واصبح سوق بورصة نيويورك ، يؤثر في سعر الصوف السوري ، وغدا مزاج الشعوب ، متوقفا على مزاج البرازيل ، وباعة النبيذ في بوردو ، وقشمري قصب السكر في كوبا . وغدت الكرة الارضية تطوى في ساعات بطائرة نفاثة ، وصار اللاسلكي والهاتف والرادار ، مقـام الحمام الزاجل والنار المشتعلة على ذروات الجبال في العصور القديمة ، واضحت العزلة بمعناها الواسع ، موتا محتما ، وبمعناها الضيق ، موتا محتما ايضا ، حتى نحن هنا في الشرق العربي ، اخذنا نتقرب شيئا فشيئا من محوري النظامين ـ المختلفين في كيفية اقامة هذه الصلـة بين الفرد والدولة ، وعلى أي اساس ينبغي بناؤها ، والمتفقين في الاخذ باسباب الحضارة الحديثة.. حتى استخدام الذرة في الاغراض السلمية.

وهذه الدعوة الداعية الى اعتناق مذهب جديد ، لا هو شرقي ولا هو غربي ، انما هو تعبير صرف عن طبيعة الشعب العربي والامة العربية ـ بعدما تبين لها ان في العالم مذهبين احدهما شرقي والآخر غربي ، هل تنظر هذه الدعوة الى هذه الحضارة الحديثة نظرة جدية فاحصة أم انها اكتفت بملاحظة النتائج .. ولم تحاول العناية بأسباب وبأصول هذه الاتجاهات الحديثة ؟! أتبين الداعون الى اعتناق مذهب جـديد بتخريجه وبعثه ، مطبوعا بطابع القومية العربية والحضارة العربية ، والاتجاه العربي في الحياة ، ان لذلك اسبابه ومقدماته التي لا بـد منها ، وهل يحق للانسان ، كائنا من كان ، ان يغفل اوضاع المجتمـع وطبيعة العصر ، والتيارات التي تتفاعل فيها الامم والشعوب ؟ الا ان هذه الدعوة اغفال تطور المذاهب المعاصرة وبحث اصولها ، وتقصي الدعوة للافكار المظيمة ، في ذاتها اتجاه نبيل ، ولكن الا يؤثر في سمو مراحل تطورها منذ اول نشأتها حتى الساعة التي فرضت فيها نفسها على العالم لتحظى باحترامه وقبوله ؟!

ان الاتجاهات المذهبية المعاصرة لم تكن وليدة الصدفة المحضة . قد يكون اكتشاف الراديوم وأشعة رنتجن قد جرى بمحض الصدفة ، ولكن ثمة اتجاهات متميزة عن سواها ، ظلت قرابة قرنين تتفاعل في محيطها ، لا يعقل ان تكون وليدة الاتفاق العجيب ، ولا محض تصور سابق ، بل انما هي خلاصة تطورات فكرية تتفاعل في محيط مادي ، له اكبر الاثر على تطور الفكر في المجال الانساني العام . واذا كان المذهبان الشائعان اليوم ، من حيث كونهما افكارا ، قد كانت في مجملها سبيلا لتصادم الآراء بين من يقول ان وسائل الانتاج في عصر معين ومرحلة معينـة من تاريخ امة ما ، هي التي تكون منحى الثقافة وتسهم في تعـدد الطبقات ، وبين من يقول ان التطور البشري يجري في نطاق من الافكار المجردة لا علاقة له بالوسائل الحضارية ، لان السمو الانساني كان لدى حطاب الغابة كما هو الآن لدى السيد المهذب . ولكن المشكلة لا تحـل بمثل هذه السهولة .. مجرد خواطر فكرية ، وبضعة من الفلاسـفة يخططون اتجاهات المجتمعات البشرية بروح تنقصها حرارة الواقـع ، وصدق التجربة .. اننا نستطيع ان نكيف نظرتنا الشاملة اذا رفعنـا

الستار الكبير عن هذا الاتجاه الحضاري الذي نعاصره الآن ، لننفذ الى لب المشكلة .. المشكلة التي لا تزال بدون حل عندهم .. هم اصحاب المذاهب .. فكيف بنا ونحن اليوم نرغب بتقليدهم ومحاكاتهم ؟!

برزت في العصر الحديث ، وبعد الحرب العالمية الاولى ، اول نظرية طبقت عمليا في الحكم والسياسة والاجتماع ، هي نظرية كارل ماركس وانجلز في الدولة والامة ، وعلى هديها سعى لينين ومن لف لفه الى اقامة دولة حديثة . واذا كان الصراع بين جبهتي العالم قد كان خافتا بعد الحرب الاولى ، فانه اليوم بعد الحرب الثانية ، يوشك ان يرقى الى مراتبه العليا ، بعد ان صارت الشيوعية دولة لها كيانها الفلسفي والمادي وظل العالم الرأسمالي يحاول جهده ان يعيق تقدم الشيوعية في داخل حدودها وفي خارج حدودها ، محتفظا بمؤسساته التي اقامها سعي امتد طيلة قرون عديدة ، تكاملت فيها هذه المؤسسات حتى غدت طابع الرأسمالية المميز .

والمتأمل لواقع المذهبين المتنافرين ،قد يعجب لتنافرهما ، وهما وليدا بيئة صناعية واحدة كان مهدها القرن التاسع عشر بأكمله ، اذ من خلال التطور الذي بدأ بعصر الانبعاث او ما يسمى بعصر النهضة ، حيث العلم في قبضة الاقطاع الديني والاقتصادي والسياسي ، حتى جاء عصر الاستكشاف ، الذي شمل الهند وامريكا واكثر متاوه العالم القديم ، فانزاحت القيود وتهاوت الحصون ، وبدأت الشعوب الاوروبية تتنسم ريح التحرر الاقتصادي في التبادل التجاري الحر ، وقد ضاعف خلاف الباباوات المتعاقبين ، مع الملوك ، حول السلطة الروحية ، او الزمنية مما ادى الى تحرر كاسح ، وتمتع الشعوب بنعمة التحرر ، فانفجرت الشظية الاولى ، معلنة بدء الثورة الفرنسية ، حاملة معها الهزات المتلاحقة التي شققت الارض التي تخيلها الاباطرة والملوك ، ثابتة تحت اقدامهم ، فمادت بهم وبعروشهم ، وقد صحب عصر البخار والالة واستغلال المواد الاولية والبحث عن الاسواق المستهلكة، الغزو الاستعماري لوضع اليد على منابع الثروة في افريقيا وآسيا ، واضحت التوابل والبهارات والحجارة الكريمة، متطلبات بسيطة تافهة، بجانب المواد الاولية الاخرى كالقطن والصوف والمعادن ، وبالتالي البترول ، عدا عن اليد العاملة الرخيصة التي نقلت من قارة الى قارة كزنوج افريقيا الذين نقلوا الى امريكا ، وكان ذلك كله يحمل فى ثناياه ، خصائص الحضارة الآلية الحديثة ، فى التناقضات الداخلية بين متطلبات السعي الحر ومهمة الدولة المشرفة ، وكذلك الرغبة في الاستعمار ، واخضاع الاسواق الخارجية لسلطان السوق الداخلية وقيام الدولة في بعض الاحيان بدفع فرق السعر في الخسارة كما حدث في المانيا قبيل الحرب العالمية الاولى.

ولقد ادى تطور هذه الحضارة التي اخذت بها اوروبا ، وهي تتطور ومتناقضاتها معها ، وضحاياها معها ايضا ، الى تزعزع الثقة بهذا الاتجاه حتى ان جمهرة الاشتراكيين الطوباويين كسان سيمون وفوريبه وامثالهما وضعوا حلولا حسبوها مجدية ، ولكنها كانت تبقي على متناقضات المجتمع الرأسمالي . كانوا يضعون حلولا سطحية تصلح من اسواء الحضارة الآلية ، فلما جاء ماركس وانجلز في البيان المنشور عام ١٨٤٨ ، حلا المشكلة جذريا ــ كما تراءى لهما ــ فألغيا الدولة الرأسمالية والغا دولة جماعية تملك وسائل الانتاج ، وتقضي على تنازع الطبقات لصالح الطبقة العاملة ، وتوفير خير الجميع للجميع ، فتتخلص الدولة ، حسب رأي ماركس وانجلز ، من تناقضات المذهب الحر ، وتضع حدا للحروب الاستعمارية التي تقوم لايجاد الاسواق المفتوحة بين الدول الصناعية الكبيرة ، والمجالات الحيوية لشعوب هذه الدول ، عدا عن ان ابقاء مصير الدولة واتجاهها بيد حفنة من رجال المال والاعمال ، يسيرون من وراء ستار ، حفنة من السياسيين لا حول لهم ولا طول ، يشكل الخطر المباشر على مستقبل كل امة تساق جماهير عمالها وفلاحيها الى الذبح دون ان يكون لها ادنى مصلحة في ذلك الصراع المقيت .

الذي اريد ان اخلص اليه ، من هذا التمهيد عن واقع الحياة التي نحياها ، وفي أي مكان كنا نعيش تحت سمائه ، فاننا لا بد من ان نتأثر بالآلة المحيطة بنا ، بالسيارة او القطار او الطائرة او الباخرة .. وكذلك بدخان المعامل ، وكل ما يمكن ان يحفل به أي بيت عادي من وسائل الحضارة الحديثة . والآلية لم تبق محصورة فى نطاق الآلات ، انها غدت شاملة للانسان في مختلف بقاع المعمور .. والمذاهب المعاصرة التي نعتقد انها مذاهب مختلفة اذا نظرنا اليها من زاوية سياسية او من زاوية تحليلية ، على الرغم من ان هذه التجزئة ليست حقيقية في دنيا الحياة التي نحياها . ان التجزئة قد تساعد على الدراسة . غصن اجرد تبين فيه تحت المجهر خلايا نباتية لا ترى بالعين المجردة ، ولكن الغصن ليس كل الشجرة . قطعة من لحم ميت .. هي ليست الميت .. هي ليست ذلك الانسان الذي كان حيا . ان الحياة تتفاعل .. تتداخل .. بعضها يؤثر في بعض ويتأثر منه .. ولا تكف الحياة عن الحركة ، واذا كانت رقعة العالم الفسيحة قد وسعت هذه المذاهب المتنابذة فيما بينها ، أفننساق في تيارها لنظن انها مذاهب متعددة ، دون ان نعود الى منشأها .. وسيرها .. وهي في الحقيقة ، وضمن نطاق التطور البشري العام ، لا تعدو ان تكون مقسمة الى ثلاث مراحل . ففي المرحلة الاولى نجد اكثر شعوب آسيا وافريقيا .. حيث الحضارة الحديثة لا تزال ضعيفة ــ وفي المرحلة الثانية نجد العالم الرأسمالي .. العالم الحر ، حيث الرأسمالية في قمة مجدها ، وريثة التطور الصناعي الهائل الذي حصل في القرن التاسع عشر وفي هذا القرن العشرين ، وفى المرحلة الثالثة ، الدول الاشتراكية ، او المعسكر الاشتراكي ، بعد ان قام ماركس بتخطيط الفكرة ، وقام لينين بتحقيقها . والغربيون يعتقدون ان التطور الحديث للحضارة لا يمكن ان يتعدى نطاق ما وصلوا اليه هم ووقفوا عنده : الفرد حر ، دون ان يضر بالآخرين والدولة تنسق نشاط الافراد وتقلل من اخطائهم بتدخلها كلما استدعت الضرورة ذلك التدخل ، ويرون في الشيوعية خروجا صارخا على طبيعة الانسان الاصيلة ، وقتلا لمواهبه وميوله . والشيوعيون يرون اننا بحكم التطور مجبرون على اقتفاء هذا الطريق ، وهو الطريق الوحيد لايقاف اخطار الآلة على الجنس البشري . ففي النظام الحر يستعبد الانسان من قبل الآلة ، وفي النظام الشيوعي تسخر الآلة لخدمة الانسان . وحرية الآلة في المجتمع الرأسمالي ، وانتاجها ، غير المقيد بضرورات السوق الداخلية ومتطلباتها اولا ، يتطلب من الدولة ان تتدخل للبقاء على الاسواق والمواد الاولية. وقد تتورط في حروب لا تتفق ومصلحة الشعب القابع خلف حدوده الراغب فى الامان والسلام .

وسواء اكان تطور المذاهب المعاصرة هذه ، قد جاء عن طريق وضع فلسفات واضحة المعالم ، ام انه كان عن طريق تطور الحضارة الحديثة، او بمعنى آخر ، سواء أكان عن طريق الافكار المجردة التي ليس فوقها ، أمثلة مادية كما يرى فلاسفة الغرب وعلى رأسهم هيغل ، أم عن طريق تطور وسائل الانتاج ومضاعفة هذا التطور كما يرى الفلاسفة الشيوعيون كماركس وانجلز ، فان أي تفكير مماثل لايجاد فلسفة عربية مماثلة ،

سوف يصطدم بواقع تطورنا التاريخي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي سوف يقف عند الحدود الاولى لشعوب آسيا وافريقيا ، وبالتالي فاننا لا نزال ، لكي نتخذ موقفا عروبيا كاتجاه فلسفي ، بحاجة الى مستويات مماثلة .. الى تفاعل داخلي .. الى ترابط بين جزئيات الفكرة لتؤلف فكرة كبيرة ، دقيقة ، ماثلة للعيان في الآذان جميعا ، وفي القلوب جميعا.

وبعد .. أين العروبة من ذلك كله الآن ؟

يخيل الي ، ولعله الحقيقة ، ان العربة ليست بحاجة الى مذهب اسوة بالكيانات الاخرى . بل هي بحاجة الى ان نتبين موقفها من خريطة العالم واتجاهها السياسي والاقتصادي وتعاملها مع اي من المعسكرين في المجال الدولي . ان العروبة اليوم تسعى لان تلم شمل كيانها المادي. هذه حقيقة مهمة يجب الالتفات اليها . والى ان يتم جمع هذا الكيان في دولة موحدة او دولة اتحادية ، ينبغي وضع خطة لا مذهب ، خطة موقتة تنتهي مهمتها بوصول العروبة الى هدفها القصير ، حتى اذا وصلت الى هذه النقطة بالذات ، لا نستطيع ان نتنبأ ، ولكننا نستطيع ان نقول انها هنالك ، تستطيع ان تفكر في الفلسفة .. وفي اعتناق المذاهب الجديدة والتي هي ليست غربية محضة .. ولا شرقية محضة .. بل اشبه بالزيتونة التي جاء ذكرها في القرآن . ان هذه افتراضات موقوتة بأزمانها ، فلنتركها لازمانها الموقوتة .

ان البلاد العربية ، من الاطلسي حتى الخليج العربي ، تشكل وحدة في الشعور والعاطفة والفكر ، بالاضافة الى التاريخ المشترك الذي يربطها بالماضي البعيد ، ويدفعها لان تتبوأ مكانتها في المستقبل المنير ، يحدوها الى الالحاح في طلب الوحدة فيما بينها ، شعورها بانها امة واحدة ، تتكلم لغة واحدة وتواجه مصيرا واحدا ، وتؤمن بقيم روحية واحدة ، يوحد فيما بينها رباط لا انفصام له ، امتد طيلة ثلاثة عشر قرنا . والحضارة الحديثة على الرغم من انها تكاد تطبع الشعوب جميعا، والاقوام جميعا ، بطابعها الموحد ، الا انها تظل عاجزة – ولو في هذه الفترة من تاريخها المعاصر – عن ان تفقد الامم مميزاتها الحضارية من ثقافة وعادات وتقاليد . وهي حتى اليوم لم تفقد الانكليزي بروده وهدوءه ، ولا الفرنسي هيجانه وعاطفته الحادة وانفعاله وعدم تبصره، ولا العربي حبه لوطنه واخيه ، وتعلقه بالمثل الرفيعة من شهامة وصدق وكرم ونجدة . واذا كانت روح التطور قد اخذت تسري في كل ما تسري به الارواح فان الانسان الذي يحاول ان يقلم اظفار الغاب عن اصابعه ، سوف يحاول – وقد ينجح – بأن ينتصر لقوميته التي تعمل للانسانية جميعا ، وذلك بالوقوف بجرأة في وجه كل الدعوات الرعناء لحروب تلازم النظام الرأسمالي الاستعماري لا باغراق العالم كله في الشيوعية، بل بتقوية الشعوب المستعمرة التي كانت مغلوبة على امرها .ولعل ارتداد الاستعمار عن بور سعيد ، سوف يكون له في بعث القوى الوطنية ضد الاستعمار ، في العالم العربي ، بل العالم اجمع ، ما كان للثورة الفرنسية من فضل في دك معاقل الرجعية في ارضها الصلبة ،والتطويح بالاقطاع ، وبعث القوى الشعبية في الامم من معاقلها ، لتبني الحضارة بروح لا تفتر .

ويبدو موقفنا محيرا . ولعل مبعث هذه الحيرة اننا نريد ان نتخذ مواقف فكرية خارجية دون ان نعمل البصر في وضعنا الداخلي . ان كل اتجاه يغفل هذا الواقع سوف يدع النتائج مضطربة غير منطقية ، وهي دليل عملي على اننا ندور في حلقات ليست متداخلة. فبعض المثقفين عندما يريدون ان نحل المشكلة ، بأن تجد العروبة مذهبها الفلسفي ، كأن مجرد التوصية كاف لذلك . ان التوصية على سترة لدى الخياط ، تسبقها مقدمات اولها الرغبة المنبعثة من الداخل ، والشعور بهذه الرغبة في اقتناء سترة ، ثم البدل النقدي لثمنها .. وهلا تحتاج الى نزلة الى السوق .. ثم انتقاء الخياط ؟ هذا مثل بسيط . ولكنه يعبر تعبيرا قويا عن واقعنا ، حين نسأل عن السترة .. لمجرد الهواية ودون اعتبار مقدرتنا المادية .. ولا الخياط الذي سوف نخيط عنده السترة . اننا مجبرون على رسم صورة حية لمجتمعنا ، وعلاقته بالشرق والغرب ، فكرا ومادة ، ثم البحث في الوسائل الاولية التي توصلنا الى لم شعث هذه البلاد العربية التي نبغي جمعها في دولة واحدة ، لانها امة واحدة ، جزأها الاستعمار . وكل قيام بعمليات تخطيط لاي مذهب فلسفي في الوقت الحاضر – وما دام المخططون له لم يشعروا بتجربة الامة العربية من الخليج الى المحيط – سوف يقصر هذا المذهب من استيعاب القضايا الاساسية لشعبنا الكبير ، انه اشبه بسترة تفصل لانسان كبير .. لم يولد بعد !!

ان واقعنا الاجتماعي ، جم التناقض ، حيث ترتسم في لوحة واحدة ، اقطاعية زراعية واخرى صناعية الى جانبها جموع شعبية كثيفة هائلة محرومة من الثقافة الاولية ، ومن ابسط وسائل العيش الشريف بالاضافة الى بعض الفئات المتحررة الواعية ، تناهبتها المذاهب الغربية او الشرقية ، نتيجة لضعف ايمانها بامكانيات شعبها الاصيلة ، وفقدان الساحة من زعامة موجهة تسعى لابراز هذه الامكانيات في نطاق حي تتفاعل فيه الحياة ولا تهدأ ، وتتطور ولا تهدأ . وحكومات قائمة هنا وهناك بعضها برغم شعوبها معتمدة على مساعدة الاستعمار وبعضها حكومات اقامتها الديموقراطية التي تعتمد على النظام النيابي القائم على تعدد الاحزاب ، ومجلس النواب في البلاد العربية ، على تباين اوضاعها خلاصة حية عن واقع المجتمع ، بتناقضاته الجمة في الاقطاع الزراعي والصناعي ، وبعض عناصر الطليعة المتحررة ، التي لا تستطيع ان تصنع شيئا ما دامت تعتمد الاساليب الكلامية في تطوير الشعب والنهوض به. وعلى هذا فان الحلقة المفرغة التي لا ينتظر منا ان نخرج منها ، تبدو رهيبة تبتلع بين اشداقها كل الامكانيات الخلاقة والقوى المبدعة ، لشعبنا، وما دام الشعب في غفوته الطويلة ، فهل يعقل ان ينتخب غير الفئات التي برزت من خلال سبات طال اكثر من الف عام ؟ وهذه الفئات الحاكمة أليس في يدها التشريع ؟ افتشرع اذن ضد مصلحتها ؟ أليس في يدها الحل والربط – ان صح التعبير – افتحل عقدة وجودها ؟ أم تلف قضايا الشعب الاساسية حول عنقها تشنق بها ؟ وهذه النظم الديموقراطية الفاسدة التي لا تصلح لهذه التربة ولا يمكن ان تنبت في مثل هذه الاجواء ، ولكونها في الغرب لم تهذب ولم تشذب الا بعد قرنين من الفوضى والاضطراب وتعاقب الحكومات ،بينما نحن في مرحلة اجتماعية متأخرة ، نحكم انفسنا بنظام من آخر طراز تنتجه مصانع الديموقراطية في الغرب . هذه الديموقراطية بالذات ، – قد ظهر فسادها – هي النافذة التي يطل علينا منها الاستعمار ليوطد اركان بقائه، ويمد في حبل رجائه بدوام رفاهه على حساب شعوبنا المعذبة. ولنتصور لو ان تركيا الحديثة لم يكن فيها مصطفى كمال .. ومصر الثورة لم يكن فيها جمال عبد الناصر، أكان الاتراك قادرين على محاربة الدول الحليفة – التي احتلت اسطنبول – وطرد اليونان من الاراضي التركية نفسها ؟! أوكانت العروبة المتحررة تظفر بصفقة الاسلحة التي قلبت خرافة التوازن ، وبتأميم القناة كرد على صفعة الغرب بسحب العروض لبناء

السد العالي .. والصمود في بور سعيد ، لو لم يكن لمصر ذلك الرجل الذي آمن بقضية شعبه ، وآمن شعبه معه بهذه القضية الخالدة ... أكنا نفكر – مدفوعين بعاطفتنا – بايجاد مذهب عربي لولا هذا السنا الذي يشرق علينا في كل يوم من قاهرة المعز .. ليفيء مشرق العروبة ومغربها ، بعد طويل ظلمة وتأخر وسبات ؟؟

ان الشعب العربي اليوم مدعو لان يقف على الحياد ، لا لان الحياد في ذاته نغم كبير لهذه الدول العربية المتفرقة بل لانها في ظل الحياد تستطيع ان تجمع شملها .. تحرر نفسها داخليا من مخلفات الماضي الطويل .. ولان بعض الدول اذا سارت مع الغرب ، وبعضها الآخر مع الشرق ، والشرق والغرب لا بد من ان يتصادما ان عاجلا او آجلا ، أفلا يجر هذا الصراع ، هذه الدول المتحيزة ، الى معاداة بعضها بعضا ، حتى ان انضمام بعضها لاحدى الكتلتين فحسب سوف يؤدي الى عزل هذه الدول عن مجموعة الدول العربية الاخرى المحايدة ، وسوف يؤخر ذلك كله تحقيق هذا التلاقي .. ما دامت الشخصية العربية بارزة الملامح ، قوية السمات من الاطلسي حتى الخليج العربي ، وهذا ليس تعبيرا شعريا .. انه حقيقة واقعة .. انه هدف قومي نبيل للملايين من ابناء العروبة ، المؤمنين برسالتها ، الساعين لتحقيق وجودها ، واثبات شخصيتها على مسرح الحياة الكبير .

ان لنا – ونحن بصدد المذاهب الفلسفية – بايطاليا والمانيا اسوة حسنة . فايطاليا تحوى كل الصفات والخصائص التي تؤهلها لانتكون دولة موحدة . وكذلك – على تباين طفيف – المانيا . فالاسلوب الذي اتبعته كل منهما في سبيل الوصول الى لم شملهما لم يكن مبرره المذهب الفلسفي الذي تعتنقه كل منهما . ان مبررات الوحدة ليست في ايجاد مذهب فلسفي تعتنقه اية امة تريد ان تلم شعثها الممزق ، حتى اذا عجزت انتفت مبرراتهذه الوحدة، بالاضافة الى ان ايجاد مذهبفلسفي خاص بالعروبة في مرحلتها الحالية ضرب من المحال . هناك باديء ذي بدء هذه الشخصية التي ينبغي لم اجزائها المتباعدة ، لاننا لا نستطيع ان نبدع مذهبا او اتجاها ما لم تتكامل شخصيتنا ، وشخصيتنا اليوم مجرد شخصية موجودة في الكتب والاذهان ، مجرد مضمون يبحث عن صورته .. مجرد صورة تبحث عن اطارها .. مجرد فكرة تنقصها حرارة الحياة ، وصدق التفاعل معها ، والحضارة الحديثة ، سواء باتجاهها الفلسفي لدى الغربيين او الشرقيين او باتجاهها المادي الموحد لدى الطرفين ، لم تتوضح الا في السنين الاخيرة عندما تهيأت كل عناصر تكونها وانبعاثها ، وهي لم تنشطر فلسفيا منذ انجلز وماركس، الا بعد ان تهيأت عوامل وظروف هذا الانشطار في شقاء المجتمع ، والحروب الاستعمارية المتكررة ، وانطلاق الآلة أشبه بالثور الهائج المعصوب العينين وسط زحام مهذب من الناس .

والمشكلة في ايجاد مذهب عربي جديد ، تبرز في ان هذا المذهب اذا كان سيبقى على صلة بالحياة ، فانه لا يستطيع الابتعاد عن محور احد النظامين الشائعين اليوم ، فلسفتهما واسلوبهما المادي معا ، والا فانه – وقد ينجح سوف يتخذ مثالا فكريا ضيق الحدود قصير المدى وهذا لا يحل المشكلة .. ما دام الموضوعايجاد مذهب عربي يضاهي المذهبين المعاصرين .. وانه لمطلب عسير المنال !!

على اننا لا نعدم الحيلة ، استجابة لنداء الضرورة الملحة ،الهادفةالى لم شعث الشخصية العربية المتناثرة، بجمع هذه الوحدات الرئيسية من هذا الكيان العربي الكبير والى بعث الحياة وحرارة الحياة ودم الحياة ، في هذا الانسان العربي الغافي في ذاكرتنا ، المرسوم على الورق ، ذلك العربي الكبير رمز الطهر الكبير ، وذلك كله مما يساعد هذه الشخصية على ان تفكر ككل .. وتنظر الى الحياة ككل .. وتقدر مفاهيمها عن كل جامع شامل لجزئياته .. في حدود بقائه حيا .. نابضا بالحياة .!.

هناك – اذن – مقدمات لا بد منها ، لايجاد مذهب عربي ، او لايجاد ظروف مناسبة قد تتيح الفرصة لايجاد مثل هذا المذهب ، ومن هذه بعض الشعارات التالية :

١ – العروبة لا يوحدها الا بقاؤها على الحياد بين المعسكرين ، وما شاءت السياسة الدولية المعاصرة ان توزع العالم الى معسكرات . العروبة مع معسكر العروبة .

٢ – حياد العروبة ايجابي لا سلبي ، بمعنى انها تتعاون مع كل معسكر في الحدود التي لا تجعلها في نظر المعسكر الآخر متحيزة ضده. والعروبة هي التي تقدر هذه الحدود . وليس احد المعسكرين اوكلاهما.

٣ – الثقافة الانسانية، خلاصة السعي البشري، نحو الحياة الافضل والاسمى ،وعلى العروبة المتطورة والمتحررة ومن واجبها ان تتابعتطور العلم لدى المعسكرين ، لانهما في حال تصارعهما الطاحن المرير المرتقب ، سوف تكون الملجأ الامين للفكر البشري الذي لا يطاله الدمار

٤ – الاخلاص لفكرة القومية العربية واهدافها في التحرر والوحدة واجب كل دولة عربية تحرص علىعدم الارتماء في احضان احد المعسكرين او أحد المذهبين ،لان ذلك معناه تأخر جمع عناصر الشخصية العربية ، المستقلة ، في نطاق حي ، متكامل ، منسجم ، وكل نبو عن فكرة الحياد المادي او المذهبي ، من قبل اية دولة عربية ، يضع نصب اعين الدول العربية الاخرى ، واجب اعادة الدولة الشاردة الى جادة الصواب ، ولو ادى الامر الى استعمال السلاح .

٥ – ثروات الارض العربية ملك للامة العربية ، تنفق في رفع شأن شعوبها ، ومساعدة بعض الدول العربية التي تساعدها اوضاعها على تحمل تبعات الدولة الحديثة ، ريثما تدنو مرحلة الذوبان في الكيان العربي الكبير .

٦ – الديمقراطية الغربية القائمة على تعدد الاحزاب ، وتوزع المسؤولية بين البرلمان والحكومة واعتبار رئيس الدولة غير مسؤول ، وفي كل اوضاعنا الاجتماعية المتأخرة المتنافرة ، تفسد قوى الامة ، التي ينبغي اعتماد الطرق الكفيلة للتعجيل بتطورها ، فالسرعة في العمل والحزم ، والاعتماد على رأي الاخصائيين ، كل في مجاله ، اسلوب ينبغي اتباعه ، بتطوير انظمة الحكم في بلادنا ، نحو حكم لا يقوم على تعدد الاحزاب ، ولا يفسح المجال للمساومات على حساب مصلحة الامة بل يهدف الى اشاعة العلم والصحة والرفاه في الريف العربي ، ولدى الطبقة المتوسطة والدنيا التي تشكل اكثرية الشعب العربي ، اسوة بما حدث .. وبما سيحدث في مصر الثورة مؤخرا .

٧ – الاسراع دون ابطاء لاقامة اتحاد بين الدول العربية المتحررة والتي لا ترتبط مع اي معسكر من المعسكرين، بقيود واتفاقات او معاهدات ، تؤثر على سير هذه الدول ، وتطورها ، في زحمة الصراع العالمي .

٨ – ان مصر اليوم ، هي الدولة الاكثر نشاطا ، والاوفر فتاء ، للقيام بالدور الذي يتوجب عليها ان تقوم به ، كدولة كبرى ، فيمجموعة الدول العربية . وهذا ما ينبغي ان تعترف به الدول العربية جميعا بما فيها مصر . كما ان اسرائيل والاستعمار الذي يساندها ، هما ،

جيـــل الخـــلاص

بقلم شريف الراس

صحيح ان القلق الصاعق ينهش شعور كل فرد من ابناء هذا الجيل العربي المعاصر ، ولكنه القلق الخلاق ، قلق المبدع العظيم الذي استطاع ان يسمو بجناحيه العملاقـين الى مستوى الاحداث الكبرى ، فيعيها الوعي اللائق بها ، ويعيشها آلاما وآمالا وتفكيرا فى تسديد الطريق القويم ، وليس قلق الناس التافهين الذين قال عنهم احد قدمـاء العرب : « زبد جفاء وسيل غثاء ، لكع ولكاع ، وربيطة اتضاع ، هم احدهم الاكل والنوم » . واذا شئنا ترجمة هذا الكلام لقلنا : ان هذا الجيل ، هؤلاء الناس الذين تراهم فى الشارع والمقهى والسينما ، والذي لهم اوضاع معاشية مختلفة ، و « ثقافات » مختلفة ، ورتب اجتماعية متفاوتة، ومستويات اعمارية متباينة ، هذا الجيل المعاصر يغمره قلق هائل ، « تجثم فوق وجدانه الضخم غيوم كثيفة مـن تساؤلات عميقة واصيلة ، ولكنه ليس قلقا سطحيا يتعلق باهداب توافه الامور : كاشباع اللذات العابرة ، وملاحقة الاحلام اللازوردية والتغزل بالورد ومناجاة القمر ، والنوم فى سراديب السحر المظلمة ، او خدر الجمود العقلي المترسب وانما هو قلق الامة التي تحس خطورة لحظـة الولادة والانجاب والانبعاث ، وانما هو قلق من يعيش فى المـوت ومن يريد ان يتخلص من شبكة الموت فى الحياة، قلق الصراط الرفيع الشاهق : وقفة المجازفة بكل الامكانيات فى سبيـل قفزة فوق الهوة السحيقة الى ميدان صخري قوي .

وهذه الغيوم الكثيفة التي تجثم فوق وجدان الجيل تريد ان تخنقه ويريد ان يقشعها وهذه التساؤلات العميقـة والاصلية التي تسمعها على لسان الفلاح والنجار والمتسابق وراء اللقمة استفهامات ساذجة ورائقة وبريئة ، وتسمعها على لسان الطليعة الشهمة تعبيرات عن المأساة ،مأساة الظلم الكبير الذي تتعاون الدول الاستعمارية والرجعيـة الداخلية لتثبيته فوق وجودنا ، مأساة البطل الذي يجازف بجميع امكانياته لتثبيت اهداف الخير فوق بقاع العالم ، واذا بزعماء الاستعمار يصورونه على انه « متأخر » و « جاهل » و « فارغ » ، هذه الغيوم النتنه ، وهذه التساؤلات وهذا الشعور باحتراق الاعصاب فوق لهيب المأساة الهائلة ، كل ذلك حصل عند جيل اليوم ، لان الفرد العربي تخلى عن سطحية الحياة ، ولان « الانا » انمحت فى بحر وحدة الامة، ولان المثل الاعلى قد اندغم فى عروق كل فرد ، ورأسه ما زال مغمورا بضياء المستقبل .

واذ انمحت الانا فى بحر وحدة الامة ، واذ كان المثـل الاعلى عريقا فى التاريخ من جهة، ومنسجما مع آمال الشعوب المعاصرة المحبة للخير من جهة اخرى ، فانك اصبحت ترى كل فرد عربي قد تفتح عن امكانيات امة كبيرة ، واصبحت ترى هذه الامكانيات تتفاعل مع بعضها تفاعلا نضـــاليا متزايدا فى التوسع والشمول ... واذ ذاك لا تعجب اذا ما قرأت فى مجلة « النيوزويك » مقالة لمعلق سياسي امريكـي اذهلته سوريا : « هذا القطر الصغير ، هذا الشعب الذي لا يزيد عدده عن ثلث سكان نيويورك ، كم هو عجيب ومحير .. لقد دوخنا بدلا من ان ندوخه ... اننا لا نعرف النقطة التي تمسكه منها ... انه من طينة غريبة تستعصي على الامساك » واذ ذاك لا تعجب اذا ما رأيت فلاحي قريـة قلقيلية يرابطون عند تخوم الوطن السليب وفى صدر كـل

السرطان الذي يؤخر تحقيق الاتحاد بين الدول العربية ، سواء على نطاقه الضيق والواسع . ولا وحدة شاملة بوجود اسرائيل . كما انه لا زوال لاسرائيل بدون الاعتراف بدور مصر الرئيسي فى قضية الوحدة الشاملة بالذات . ولا وحدة بدون حياد .

٩ ـ تصفية متناقضات الحياة الاجتماعية ، بالاقلال من اخطار الآلة الحرة على المجتمع العربي ، وتقوية الجيوش المزودة بالعلم والفن ، مظهران من مظاهر كل دولة عربية تسعى نحو الاتحاد ، احدهما كسياسة في الداخل ، القائمة على الاخذ بالبداية الاجتماعية وتخفيض الفروق بين الطبقات باعتماد الضرائب التصاعدية وثانيهما كسياسة خارجية تقوم على مبدأ وضع السيف في موضع السيف ، والندى في موضع الندى .

١٠ ـ من تاريخ الشعوب الحية ، ومن روح الحضارة الحديثة ، القائمة على كلا المذهبين ، ومن خواص الامم والشعوب ، وقوميتنا المنفعلة بالانسانية ، والانسانية التي رائدها السلام الابدي ، ومن الحرص على تجنب الزج بالعروبة ـ كشعب وكقضية ـ فى أتون الخلافات الدولية . ومن السعي الذي لا يفتر لجمع الاجزاء العربية ، المتناثرة فى دولةاتحادية كمرحلة اولى ، من ذلك كله ، حوافز ومثل ، وبيئات صالحة ، لنقتبس منها معين صورة باسمة ، لغدنا الباسم المرتجى ..

وبعد .. فانا مواطن عربي من سوريا ، لا اجيد البحث في الفلسفة وكذلك لا اريد ان اعوض ذلك النقص ، بالتفلسف ، واذا كان باعي يقصر عن مجاراة الاساتذة الذين تحدثوا في الموضوع ، بعد ان جالوا جولاتهم الموفقة ، فان حسبي ان اشمر عن ساعدي ، واضرب الارض بمعولي ، لنشيد جميعا ، على هذه الارض صرح عروبتنا ، وصرح بقائنا ، وامجادنا التالدة والحاضرة ، والتي لم تطل بعد .. من القادسية ، وحطين ، ومعركة التحرير في الجزائر .. وحتى معركة الصمود في بور سعيد .

حلب — **علي بدور**